محمد
الرسالة والرسول

للدكتور نظمى لوقا

عرض وتحليل الأستاذ سعيد مكرم المحامى

حين أقبلت على هذا الكتاب أقرأه أخذنى الاشفاق على مؤلفه إذ يتصدى وهو المسيحى — لبحث كهذا شديد الحساسية يتطلب فى الباحث روحاً عظيما لا يميل مع الهوى وقلباً كبيراً لا يعرف التعصب وقلماً لبقا لا يتعثر ولا يكبو وبصيرة مضيئة لا تضل أبداً طريقها إلى الحق والانصاف .

وأشهد أننى ما كدت أمضى فى قراءة صفحات من الكتاب حتى بدأ الإطمئنان يأخذ طريقه إلى قلبى فالرجل لم يرتجل هذه الدراسة متسرعاً إلى شهرة أو مستجيباً لنزوة بل هو يمضى فى بحثه على منهج علمى منطق لحمته الحيدة وسداه الانصاف ، وأشهد أيضا ـ وقد رافقته إلى نهاية كتابه ـ أنه لم يتخل عن منهجه العلمى ذاك إلى آخر بحثه مما يضفى على كتابه قيمته الموضوعية الكبيرة التى تجعل منه منارا ومحجة لكل باحث عن الحقيقة حقيقة هذه الرسالة وحقيقة هذا الرسول

وهكذا يبدأ الدكتور نظمى لوقا كتابه بمقدمة تظهرنا على ما يتمتع به من خلق علمى رصين فهو يقول فى كلمات حكيمة مضيئة (من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور ومن يغلق عقله وضميره دون الحق يضير عقله وضميره ولا يضير الحق فالنور منفعة الرائى لا للمصباح والحق منفعة واحسان إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه . ومامن آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ماهو أسوأ من العمى لذى البصر ومن الصمم لذى السمع لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر ومن الصمم لذى السمع لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر إنسانا والأصم قد يبقى بعد فقد السمع انسانا ، أما من اختلت موازين عقله أو موازين وجدانه حتى ما يميز الخبيث من الطيب فذلك ليس بانسان بالمعنى المقصود من كلمة انسان

وعلى ضوء هذا النهج ينتقل الدكتور نظمى لوقا إلى موضوع الكتاب فيبدأ « بالآية الكبرى » . الآية الحاسمة فى فى اثبات صحة النبوة لمحمد عليه

السلام وفى اثبات صدق رسالته بل اثبات هذه الصفحة وهذا الصدق لأى رسول ولاية رسالة على الاطلاق .

لقد وقف يبحث عن مقياس لا يضل عن الحق ، وحجة تنهض شاخة فى وجه أى شك أو اعتراض ولم يطل به الوقوف فقد استبان له النهج المستقيم إنه فى (صدق الكلمة من حيث هى فإن الحقيقة آية نفسها تحمل برهانها فى مضمونها فيطمئن إليها العقل ويبدو ماييانها هزيلا واضح البهتان

إن مقياسه إذن هو موضوع الرسالة هو مضمونها . . هو لبها . . هو جوهرها (وذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على انصاف ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمح

وبعد أن انتهى الدكتور إلى أنه ليس من المنطق ولا من الانصاف فى شىء أن نطالب إلى محمد صلى الله عليه وسلم أن يقدم برهانا عيانيا على وحيه وهو مالم يطالب به قط رسول من قبل مما يوجب التسليم من حيث المبدأ بحقيقة هذا الوحى ولا يبقى حينئذ إلا أن نضع مضمونه تحت المجهر المبصر النزيه . .

إن لكل دين موضوعه الذى يفرضه تباين مستويات الخط البيانى للتطور البشرى ، فإذا كان الدين غير ذى موضوع أو كان موضوعه صورة مكررة مما سبقه من أديان حق لنا بل وجب علينا أن ننكر عليه صفة الدين فمن أخص خصائص أية دعوة جديدة أن يكون لها موضوع وأن يتميز هذا الموضوع بطابع معين يغاير فى قليل أو كثير طابع ماسبقه من عقائد . وإلا فلا معنى لتعاقب الأديان والشرائع وانتفت الحكمة من الأديان على الاطلاق . ومن ثم فقد أخذ الدكتور على عاتقه بحث طبيعة الأديان الكتابية الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والاسلام بحثاً موضوعياً فى ثلاثة فصول بعد أن مهد لهذا البحث بفصل عقده عن الانسان والدين تعقب فيه الجذور البعيدة للعقيدة الدينية فى ضمير الانسان ورافق هذه الفكرة منذ كانت تحبو فى مراجلها البدائية السحيقة إلى أن استوت عقيدة ناضجة تملأ يقين العقل السليم وتطمئن اليها القلوب الذكية .

وهكذا فى لمحات سريعة واضحة عرض علينا صور الرحلة الخالدة للعقل البشرى عبر التاريخ من القول بالتعدد والتجسيم الى القول بالروح ثم الى القول بالوحدانية التى تجمع القضاء والقدر الى وحدة الوجود أو الى الفناء الأسمى ثم الى القول بأن الله هو الذات الكاملة بالاطلاق وأنه مصدر الوجود لكل

وجود . ثم ينتهى المطاف بالعقل البشرى وقد بلغ رشده الى الايمان (بوحدانية الله ذاتا قائمة فوق كل قيام هى مصدر الحق والوجود لا تدرك ولا يحاط بها وانما يعيها الانسان بما فطر عليه من طلب العقيدة ويقيس صوابها بما ترضى لديه من ملكة الاعتقاد ومن فطرة الوجود التى يأنسها منطبعة فى أغوار نفسه فيحصل لديه الإيمان الذى لا محل معه لسؤال لحصول الطمأنينة التى تشبه النور فى رأى العيان ، وليس النهار بحاجة إلى دليل ولا النور بحاجة إلى برهان) ،

ثم تحدث عن اليهودية (كدين شعب) وهو بهذه المثابة أوشك أن تكبله المراسم والطقوس على الرغم من أنه دين توحيد وتنزيه وسرعان ما استحالت طبيعته الطيبة النقية على أيدى بنى اسرائيل إلى مسخ يزين لهم أن (الحق والعدل مما شرع الله غير مطلوبين من العبرانى إلا نحو عبرانى مثله أما مع غير العبرانى فلا حق له عندهم ولا شرع ولا عهد) .

وازاء هذه المادية الغليظة والمراسم الثقيلة والضلال المبين التى شوهت وجه هذه العقيدة كان لابد أن ينبثق دين آخر لا يكون (دين شعب) دون آخر بل من أخص خصائصه أن يكون (دين قلب) ، القلب الإنسانى من حيث هو كذلك بصرف النظر عن الفوارق الاقليمية والشعوبية ، وهكذا كان هم المسيحية الأول أن تصعد بالإنسان بعيدا عن أوضار المادة وتحرره من قيود المراسم والطقوس وتحلق به إلى أجواء تموج بالغبطة والرضا والايمان ،

(ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجا واحدا متساوقا وأن عقيدة القلب الخالص من كل علائق المادة هى بطبعها عقيدة الأفراد الأفذاذ أما السواء من الناس فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود) .

ومن جديد تردت الإنسانية فى مهاوى التعدد والتجسيم وعبودية المراسم فكان لابد أن يأتى دور (دين البشر) . دين يرد للإنسانية شتات ايمانها بالله ويؤكد يقينها بوحدانيته وانه سبحانه هو الأول والآخر وانه الكامل ذاتا وصفات وإنه على كل شىء قدير .

(وهكذا لا بد أن يكون هذا الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة العامة منهم والخاصة يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن إليها وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا وبالآخرة . بالله والإنسان) .

(وكان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين) ثم يمضى الدكتور نظمى لوقا يجلو الخطوط العريضة لهذا الدين فيفصل القول فى طبيعة إيمان المسلم بالله فى فصل توجه باسم الجلالة (الله) ثم ثنى بفصل عن تناول الفكر الإسلامى لمسألة (النبوة) بعامة ونبوة محمد صلوات الله عليه بخاصة .

بقيت بعد ذلك هـــذه الزوابع والشبهات التى يثيرها خصوم الإسلام من حوله ، ولئن حسبها أولئك المبطلون معـارك توهن من صرحه المتين فإن الدكتور نظمى لوقا لا يتركهم لوهمهم وسبيله إلى ذلك كنهجه دائمـا الدليل المنطقى والفكرة النافذة والحسم المحايد النزيه وعلى هذه الوتيرة تناول بالتحليل والتعليل موقف الإسلام من المرأة فى فصل (حواء) ثم موقف الإسلام من الحكم والحاكم فى فصل (لا قيصر) ثم كشف عن موقف الإسلام من الكهانة والوساطة بين رب الناس والناس فى فصل (مع الله)

ولا يقف الدكتور نظمى لوقا عند نهاية هذا البحث الموضوعى الممتع لرسالة محمد صلوات الله عليه بل يتخطى هذه الحدود بقلمه المنصف فى ثلاثة فصول خاطفه ناصعة يتوسل بها إلى التعرف على الرسول فى شخص محمد عليه السلام . وكان (لا بد مما ليس منه بد) فكما انتهى به رشده الفكرى وبصيرته العلمية وموازينه القسط إلى إلى الايمان بدعوة محمد عليه السلام انتهت به أيضا إلى الإيمان بمحمد رسولا نبيا وعلى انغام هذا اللحن الصوفى المحلق يتهادى قلم الدكتور نظمى لوقا إلى الدفة الأخيرة لكتابة القيم :

لا خيرة فى الأمر . .
ما نطق هذا الرسول عن الهوى
لا خيرة فى الأمر . .
ماضل هذا الرسول وما غوى
لا خيرة فى الأمر . .

وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين .

فسلام عليه بما هدى من سبيل وما قدم من نهج وما بين من محجة .. وسلام على الصادقين .

وبعد فلكى أكون صادقا مع نفسى ومع القارىء يجب أن أعترف أن هذه العجالة لاتغنى قتيلا عن قراءة هـذا الكتاب الذى يعلم المرء كيف يكون منصفا حتى فى أشد الأمور تعلقاً بالعواطف والمشاعر، فى أمور العقائد والاديان والإيمان .

إنه كتاب الساعة وكل ساعة ما بقيت فى ضمائر الناس عقـائد وما دعا داع إلى دين ...

سعيد مكرم المحامى